

من أخبار المسافرين (٢٨)

الفاروق يسافر إلى بيت المقدس

وبعد الاستخارة المتكررة والمشورة الطويلة من عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لأصحابه قرّر أن يسافر بنفسه من المدينة إلى بيت المقدس تلبيةً لدعوة قوّاده من المسلمين، وبناءً على رغبة البطريق الذي اتفق مع أبي عبيدة على الصلح على أن يسلم بيت المقدس لعمر بن الخطاب نفسه لا لأحد غيره لأنهم يقولون إن صِفّة الرجل الذي سيفتح بيت المقدس موجودة عندهم في كتبهم وهي تنطبق على رجل له أوصاف معينة، وكانت تلك الأوصاف كلها في عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - .

كتب أمير المؤمنين إلى أمراء الأجناد أن يوافوه بمدينة الجابية على هضبة الجولان بسورية في يوم حدده لهم، ثم سار في ملأ من كبار الصحابة إلّا عليّاً بن أبي طالب - رضي الله عنه - فقد استخلفه على المدينة مكانه .

فلما أتى الجابية جاءه أمراء الأجناد على خيولهم المُطَهَّمة، ورآهم في زينتهم، فأنكر ثيابهم الفاخرة، وأخذ بحصوات من الأرض، فرماهم بها، وقال: «إياي تستقبلون في هذا الزي! إنما شبعتم منذ سنين! سرعان ما ندّت بكم البطنة! فوالله لو فعلتموها على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم!» فقالوا: «يا أمير المؤمنين، إنما هي يلامقة (جمع يَلْمُق فارسي معرب بمعنى: الجبة) وإن علينا السلاح». قال: «فنعم إذن!» .

وبينما كان عمر في الجابية، رأى جماعة من فرسان الروم قادمين من بعيد، ففرع المسلمون إلى سلاحهم وخیلهم، فقال لهم عمر: «لا تراعوا!» وإذا وفد أهل بيت المقدس قد أتوا عمر، يدعونه إلى الصلح،

وإلى دخول مدينتهم . . واستعد عمر للسفر إلى بيت المقدس ، فأخذ يهيئ
بعيره بنفسه للسفر . . ورأى أبوعبيدة أمير المؤمنين عمر في ثوب مرقع ،
فقال له : «يا أمير المؤمنين ! لو ركبت بدل بعيرك جواداً ، ولبست ثياباً
بيضاء ، لكان هذا أعظم في عيون الروم» ! فقال : «نحن قوم أعزنا الله
بالإسلام فلا نطلب بغير الله بديلاً» .

ولكن أباعبيدة وبعض كبار الصحابة مازالوا بعمر حتى رضي بأن يغير
مرقعته ، وبعيره ، فأتوا له بثوب أبيض من كتان ، فقال : «ما هذا؟» قالوا :
«كتان» قال : «وما الكتان؟!» فأخبروه . .

وكان الفاروق وغلामه يتناوبان الركوب ، فيركب هو مرحلة من
الطريق ، وغلामه مرحلة أخرى ، حتى إذا دخلا بيت المقدس ، كان الغلام
راكباً ، وأمير المؤمنين يمشي في الطريق الموحد ، وأهل بيت المقدس لا
يصدقون أنفسهم من الدهشة ، وهم ينظرون ! . . أي الرجلين هو أمير
المؤمنين : أهو الراكب ، أم هو هذا الذي يمشي تحت المطر . . ؟!

وصالح عمر أهل بيت المقدس على الجزية ، فقد ثبتوا على دينهم . .
وجاءت معاهدة الصلح محققة لمصالح الطرفين ، وآية من احترام حرية
العقيدة ، والرأي ، ورعاية حقوق الإنسان ، وهذا هو نصها :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل
إيلياء (بيت المقدس) من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم ولأموالهم ،
ولكنائسهم ، وصلبانهم ، وسائر ملتهم ، أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم ،
ولا يُنتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ، ولا من شيء من
أموالهم ، ولا يُكرهون على دينهم ، ولا يُضار أحد منهم ، ولا يسكن
بإيلياء معهم أحد من اليهود (وكانت هذه هي رغبة أهل البلد) ، وعلى أهل
إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن ، وعليهم أن يُخرجوا منها

الروم والصوص، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمَنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم (كنائسهم) وصلبهم (جمع صليب) حتى يبلغوا مأمَنهم، ومن كان بها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا ما عليهم من الجزية».

فرح أهل بيت المقدس بهذه المعاهدة فرحاً عظيماً، فها هو ذا أمير المؤمنين عمر يكفل لهم حرية العقيدة، بعد أن كان قيصر الروم يقهرهم على اعتناق مذهبه، فمن خالف منهم عذَّبه عذاباً أليماً، واستولى على أمواله وأرضه، وهدم بيته، على الرغم من أنه نصراني مثلهم!.. أين هذا مما يوفره لهم عهد أمير المؤمنين!.

سار عمر إلى بيت المقدس، حتى إذا بلغ الصخرة المقدسة، التي تخفق لها قلوب اليهود والنصارى والمسلمين على السواء أزاح عنها بيده التراب المتراكم عليها، وأمر المسلمين: «ابنوا عليها مسجداً».

ثم قصد محراب داود، فصلى فيه بالناس، وسهر، وسهر الناس معه يتعبدون حتى مطلع الفجر، فصلى الصبح بالناس، وقرأ في أول ركعة سورة (ص)، وفي الركعة الثانية سورة الإسراء.

وصحب بطريق بيت المقدس أمير المؤمنين، وطاف به على آثار المدينة، فزار هيكل سليمان، وكنيسة القيامة، وحانت صلاة الظهر، وعمر والبطريق في كنيسة القيامة، فدعاه البطريق إلى الصلاة، داخل

الكنيسة، فأبى عمر كي لا تكون سنة للمسلمين من بعده، فيُخرجوا النصارى من كنائسهم، فمدّوا له بساطاً على باب كنيسة قسطنطين المجاورة لكنيسة القيامة، ليصلي، فأبى، كي لا يصلي المسلمون من بعده على عتبات الكنائس، وأعطى للنصارى عهداً ألا يصلي أحد من المسلمين على عتبة كنيسة أبداً! .

وانطلق عمر إلى المكان الذي أمر المسلمين بأن يقيموا عليه مسجداً، عند الصخرة المباركة، فصلى بالناس .

وأنهى عمر رحلته الخالدة العظيمة إلى بيت المقدس وحقق الله رجاءه وفتح الله له المدينة العالمية يفعل فيها ما يشاء . وكانت أنباء الفتح العظيم قد بلغت عليّاً والمسلمين في المدينة فاستقبلوه بظاهر المدينة استقبالا عظيماً ملؤه البشر والفرحة والإكبار والإجلال وكلّ ذلك في غير ما بطر، ولا فخر، ولا كبرياء، وإنما في تذلل لله واعتراف بنعمته فهو الذي أعز جنده وهزم الأحزاب وحده . رضي الله عن عمر وعن الصحابة أجمعين . وإلى اللقاء مع مسافر آخر .

لامية الطغرائي

قال العميد أبو إسماعيل الطغرائي المتوفى سنة ٥١٣ هـ في قصيدة لامية من أروع القصائد يشكو فيها الغربة ويدعو في الوقت نفسه إلى السفر والتنقل لكسب العيش وصيانة النفس ويحث المرء على القناعة وعلى عزّة النفس وصيانتها عن الذل وعما في أيدي الناس وعن موارد الكدر ويشير إلى أن الحظ قد يكون في أغلب أحيانه مع الجهلة ومع الذين ليسوا أهلاً لما نالوا. وهي طويلة وقد اخترت منها بعض أبياتها:

أصالة الرأي صانتني عن الخطي	وحلية الفضل زانتني لدى العطل
فيم الإقامة بالزوراء، لا سكاني	بها ولا ناقتي فيها ولا جملي
ناءً عن الأهل صفر الكف مفرد	كالسيف عري متناه عن الخل
فلا صديق إليه مُشكّي حربي	ولا أنيس إليه منتهى جذلي
طال اغترابي حتى حنّ راحلي	ورحلها وقرا العسالة الذبل
أريد بسطة كف أستعين بها	على قضاء حقوق للعلا قبلي
حبّ السلامة يشني عزم صاحبه	عن المعالي ويغري المرء بالكسل
فإن جنحت إليه فاتخذ نفقاً	في الأرض أو سلماً في الجوفاعتزل
ودع غمار العلا للمقدمين على	ركوبها واقتنع منهمن بالبلل
يرضى الذليل بخفض العيش مسكنة	والعز عند رسيم الأينق الذلل
فادراً بها في نحور البید جافلة	معارضات مثاني اللجم بالجدل
إن العلا حدثني وهي صادقة	فيما تحدّث أن العز في الثقل
لو أن في شرف المأوى بلوغ مني	لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمل
أهيت بالخط لو ناديت مستمعا	والخط عني بالجهال في شغل
لعله إن بدا فضلي ونقصهم	لعينه نام عنهم أو تنبّه لي

ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل
فكيف أرضى وقد ولت على عجل
فصنتها عن رخيص القدر مبتذل
وليس يعمل إلا في يدَي بطل
وراء خطوي لو أمشي على مهل
من قبله فتمنى فسحة الأجل
لي أسوةً بانحطاط الشمس عن زحل
في حادث الدهر ما يغني عن الحيل
من لا يُعوّل في الدنيا على رجل
أنفقت صفوك في أيامك الأول
وأنت تكفيك منه مصّة الوشل
يحتاج فيه إلى الأنصار والخول
فهل سمعت بظل غير منتقل؟
أضمتُ ففي الصمت منجاةً من الزلل
فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

أعلل النفس بالآمال أرقبها
لم أرْتضِ العيش والأيام مقبلةً
غاليً بنفسِي عرفاني بقيمتها
وعادة السيف أن يُزهي بجوهره
تقدمتني أناسٌ كان شأوهمُ
هذا جزاء امرئٍ أقرانه درجوا
فإن علاني مَنْ دوني فلا عجبُ
فاصبر لها غير محتالٍ ولا ضجيرٍ
فإنما رجل الدنيا وواحدُها
يا وارداً سُورَ عيشٍ كُلُّه كدرٌ
فيم اقتحامك لجّ البحر تركبه؟
ملك القناعة لا يخشى عليه ولا
ترجو البقاء بدار لا ثبات بها
ويا خبيراً على الأسرار مطلعاً
قد رشحوك لأمرٍ إن فطنت له

التجارة الرابعة

قال الأصمعي: أنبأنا شبيب بن شيبه، قال: كنا بطريق مكة وبين أيدينا سفرة لنا نتغدى في يوم قائظ، فوقف علينا أعرابي ومعه جارية له زنجية، فقال: يا قوم أفیکم أحد یقرأ کلام الله حتى یکتب لی کتاباً؟ قال: قلت له: أصب من غدائنا حتى نکتب لك ما تريد. قال: إني صائم. فعجبنا من صومه في تلك البرية، فلما فرغنا من غدائنا، دعونا به فقلنا: ما تريد؟ فقال: أيها الرجل، إن الدنيا قد كانت ولم أكن فيها، وستكون ولا أكون فيها، وإني أردت أن أعتق جاريتي هذه لوجه الله عز وجل، ثم ليوم العقبة، تدري ما يوم العقبة؟ قوله عز وجل: ﴿فَلَا أَفْنَحُمُ الْعَقَبَةَ﴾ ١١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ١٢ فَكَ رَقَبَةٍ ١٣ [البلد: ١١-١٣] اكتب ما أقول لك ولا تزدد عليَّ حرفاً: هذه فلانة خادم فلان، قد أعتقها لوجه الله عز وجل وليوم العقبة. قال شبيب: فقدمت البصرة وأتيت بغداد، فحدثت بهذا الحديث المهدي، فقال: مئة نسمة تعتق على عهد الأعرابي - أي على نيته -.

إن مع العسر يسرا

[النحل: ١٢٧]

﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾

[الزمر: ١٠]

﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

اصبر على الدهر إن أصبحت منغمساً بالضيق في لجج تهوي إلى لجج
فإن تضايق أمر عنك مرتجاً فاطلب لنفسك باباً غير مرتج
لا تيأسنَّ إذا ما ضقت من فرج يأتي به الله في الروحات والدلج
فما تجرع كأس الصبر معتصم بالله إلا أتاه الله بالفرج
أخي المسافر إن كنت ممن حكمت عليه الظروف وقست عليه
الأحداث فاضطرت للخروج من بلدك ومفارقة أوطانك والغياب عن
أهلك وجيرانك فعليك بالصبر، وإن كنت قد ظلمت فأخرجت من أرضك
وحُربت في بلدك وطُردت من ديارك فعليك بالصبر.

إن الأمور إذا انسدت مسالكها فالصبر يفرج منها كلما رتجا
لا تيأسنَّ وإن طالت مطالبة إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا
وإن كنت قد لجأت إلى الغربة وركبت الأهوال وعبرت المفاوز طلباً
للعلم وتحصيلاً للفائدة فعليك بالصبر.

ومن يصطبر للعلم يظفر بنيله

ومن يخطب الحسنة يصبر على البذل

ومن لم يُذِلَّ النفس في طلب العلا

يسيراً يعيش دهرأ طويلاً أخا ذل

وإن كنت قد خرجت باحثاً عن لقمة العيش، وساعياً في مناكب الأرض
لكسب الرزق وصيانة الوجه وحفظ الكرامة فعليك بالصبر.

لا يملأ الهول صدري قبل وقعته ولا أضيق به ذرعاً إذا وقعا
ما سُدَّ لي مطلع ضاقت ثنيته إلا وجدت وراء الضيق متسعاً
نعم أخي المسافر عليك بالصبر ولا تيأس ولا تقنط ولا تستسلم
لأحداث الزمان وعوادي الأيام وقسوة الأعوام، واعلم أن النصر مع
الصبر، وأن مع العسر يسراً ولن يغلب عسرٌ يسرين.

يضيق صدري بغمٌ عند حادثةٍ وربما خيرٌ لي في الغم أحياناً
وربَّ يوم يكون الغم أوله وعند آخره رَوْحاً وريحاناً
ما ضِقتُ ذرعاً بغمٌ عند نائبةٍ إلا ولي فرجٌ قد حلَّ أو حانا
ولله در القائل:

إذا اشتملت على اليأس القلوبُ وضاق لما به الصدرُ الرحيبُ
وأوطنت المكارهُ واطمأنتُ وأرست في أماكنها الخطوبُ
ولم ترَ لانكشاف الضرِّ وجهاً ولا أغنى بحيلته الأريبُ
أتاك على قنوطٍ منه غوثٌ يمينٌ به القريبُ المستجيبُ
وكلَّ الحادثات وإن تناهتْ فموصولٌ بها فرجٌ قريبُ
وقال الآخر:

صبرت على اللذات لما تولتْ وألزمتُ نفسي الصبرِ حتى استمرتْ
وكانت على الأيام نفسي عزيزةً فلما رأيت صبري على الذلِّ ذلتْ
فقلتُ لها يا نفس عيشي كريمةً لقد كانت الدنيا لنا ثم ولتْ
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى فإن أُطِمِعَتْ تَأَقَّتْ وإلا تَسَلَّتْ
فكم غمرةٍ دافعتها بعد غمرةٍ تجرعتها بالصبر حتى تولتْ
اللهم اشرح صدورنا ويسر أمورنا ونور قلوبنا.

المسافر والسماء

السماء ماذا عن السماء؟ ومن يملك أن يعبر عن السماء؟ أي قلم سيكتب الحديث وافيًا؟ وأي بيان سيكون شافيًا؟ وأي لغة يكون معها الكلام كافيًا؟

لماذا؟ لأن السماء هي كل شيء بالنسبة لنا، قلوبنا، عواطفنا، عقولنا، مشاعرنا، اتجاهاتنا، آمالنا، آلامنا، أحلامنا، رزقنا، حياتنا، نعيمنا، شقاؤنا، رخاؤنا، وجودنا، فناؤنا، نصرنا، غيثنا، عزنا، فرجنا، حبنا، تعلقنا، كل ذلك في السماء وإلى السماء ومن السماء.

إذا انقطعت بنا أسباب العيش وضاعت بنا سبل المعيشة لجأنا إلى السماء ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تُنْقِونَ﴾ [يونس: ٣١]

إذا أجذبت الأرض وامتنع القطر هرعنا إلى السماء وانتظرنا الغيث من السماء ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢] ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢] ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠] ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [النحل: ٦٥] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ

يَجْعَلُهُ حُطْلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ [الزمر: ٢١]

إذا يبست الأشجار، وانقطعت الثمار، وذبلت الأزهار، وشحب لون الأرض بعد الاخضرار فإن حياتها في السماء، وازدهارها من السماء، ومددُها من السماء ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠]. ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْفَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوْسٍ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠]، ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩]

إذا اشتد بنا الكرب، وادلهمت بنا الأمور، وضافت علينا الدنيا بما رحبت اتجهنا إلى السماء، وانتظرنا الفرج من السماء ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧]، ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]

٥٣

إذا اتَّجه من عميت بصيرته إلى غير السماء، ولجأ من تعسَّت حياته إلى غير السماء فإن المؤمن يلجأ إلى السماء ويتجه إلى السماء ويتولي الذي في السماء ﴿قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنِ الْفَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]

إذا أودى الداعي إلى الله، وتنكر له قومه، ونصبوا له المكائد، فإنه يلجأ إلى السماء ﴿فَدْعَارِبَهُ إِنْ مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ﴾ [القمر: ١٠]

إذا ظلمت الأمم، وطغت البشرية، وزاغت الإنسانية فانظر المقت من

السما، وارتقب العذاب من السما ﴿فَبَدَّلَ الَّذِي ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٢]، ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤]، ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [١٦] أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [١٧]

فالسما تربطنا بها رابطة قوية، فالأبصار تسعد بالنظر إليها، والقلوب تأنس بالركون إليها، لا للسما في ذاتها وإنما لله تعالى الذي خلق السما، ثم استوى إلى السما فاتجهنا بكل ما نملك إلى السما، وأصبح التطلع إلى السما واللجوء إلى السما أمراً مركزاً في طبيعة الإنسان ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤]

إن السما آية عظيمة من آيات الله تعالى الدالة على وحدانيته، والشاهدة بعظمته، والناطقة بقدرته، ولذلك دعا عباده إلى النظر إليها والتأمل فيها ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَاحِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَنَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، ﴿الَّذِينَ تَرَوُا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥]، ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْفَلَقِ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَأْنَا فِيهَا مِنْ

كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ [لقمان: ١٠]، ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ ﴿١﴾ [الرعد: ٢]

اللهم فاطر السموات والأرض، أنت وليي في الدنيا والآخرة، توفني مسلماً وألحقني بالصالحين.

إلى السماء

هذه رسالة صادقة يبعث بها أحد الشعراء إلى السماء عبّر بريد: «إليه يصعد الكلم الطيب»، رسالة من أجمل ما قرأت لكأنني بها تخترق الحجب وتنفذ في صدقها وروعها وجمالها إلى عالم غيب السموات والأرض، بواسطة «أما إن ربك يحب الثناء»، إلى الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، إلى الذي تعلقت به قلوب المحبين، وهفت إليه أفئدة المتقين، غفر الله لقائلها وناقلمها وقارئها، والقصيدة للشاعر محمد العلائي «مجلة الرسالة»:

لك الأمر لا يدري عبادك ما بيا	لك الأمر لا للناصحين ولا ليا
وهذي معاذيري وتلك صحائف	عليها خطاياها . وفيها اعترافيا
وفيها من الأمس الدفين وحاضري	وفيها من الآتي وفيها ابتهاليا
وفيها تهاويل . ومهجة شاعر	ينام بها يأساً ويصحو أمانيا
وفيها أعاجيب يكفر همها .	ذنوبي وإن كانت جبلاً رواسيا!!
ونازعني شوق إليك وهزني	من الغيب ما يهفو إليه رجائيا
وجئت من الدنيا الأثيمة هارباً	بصفوي من أكدارها ونقائيا
وفي النفس ما أخشى ظلام ضبابه	على نور إيماني ومسرى حيائيا
وذكرى من الماضي الشهيد وعالم	ورائي منه خدعة وأماميا!
وناديت أحلامي إليك وخافقاً	تهيب أسباب المنى والتماديا!!
أناديك في ضعف. وأخجل أن ترى	جراح أمانيه ولون دمائيا
لك الأمر. أشواقى ببابك والمنى	ولي أمل ألا يطول انتظاريا!

دعوتك بالسرِّ المغيَّب في دمي
ولاح نشيد جئت أشرع لحنه
لك الأمر. مالي أرتجيك فيلتوي
ذَكَرْتُكَ في نفس هداها ضلالها
ومنيت روعي من سنك بلمحة
وأرسلته فيما لديك لعله
تعاليت لم أذكر سواك بمحتي
وفوّضت عن علم إليك إرادتي
لك الأمر. شاقنتي سماؤك وانتهى
وأنزلتُ آمالي وفيها ملامح
يُطالِعني منها زمان عرفته
تُقلِّبُ ذكراه الدفين وماضياً
أطلتُ مآسيه ببابك فاستمع
ضياؤك أغرى باليقين جوارحي
لك الأمر أسباب ضعفٍ وخاطري
دعوتك ملء النفس ألا تردّه
وحاشاك أن أرضى مع النفس مذهباً
كفاني أوهاماً فهب لي تميمة
وبارك فجاج الأرض إلا مواضعاً
تناسيتها لولا حديث أهاجه
وجدّد لي همس الرحيل مكارهاً
وأيامي اللاتي ذهبن وعالماً

وألهمني حبي وفاض عتابيا
فهابتك أرضي واستحتك سمائيا
لساني وأمضي بالتوسّل شاكيا
إليك وعافت وحدتي وارتيايا
أضمدُ آلامي بها وجراحيا
يعود بأسباب المحبة راضيا
ولم أَرْجُ إلا من يديك جزائيا
وحسبي ما أدّى إليه اختياريا
إليك بأحلام الضمير مطافيا
تردُّ أمامي ما تركت ورائيا!
بريح لياليه ولون سهاديا!!
تهرّب منه في الشعاب خياليا!!
إليها حديثاً لم يسعه بيانيا
وفجّر أعماقي وأفضى بذاتيا
ببابك يخشى رجعتي وانحرافيا
مغيظاً وألا تستعيد سؤاليا!!
بغير يقين منك يهدي شعاعيا!
بها أُنقي نفسي وشرّ ذكائيا!!
شربن دموعي أو شهدن عثاريا
تلفت أشواقِي وخوف ارتداديا
تولّى شجاها والجراح كما هيا
دفنت به عهد الصِّبا وشبابيا

أعود فأبكيه دموعاً غاليا
وهذا قليل في مقام اتصاليا
إليك ولحن البشر ملء فؤاديا
من الخير يحدوه إليك ولائيا
وآفاق نور يستحيها ضيائيا
وذاب يميني رحمة وشماليا!!
وفاضت على ما ليس مني هباتيا
لتنفح أشواك الرُّبى والأفاعيا!!
وتصعد أنفاساً إليك حياتيا!
ضميري وأبدته إليك سمائيا!!
وعاودني منها دبيب شكاتيا!
أتيتك منها عابس الوجه داميا
وأرفع آمالاً إليك روانيا!!
وراودت فيه ما أشاب النواصيا
ذكرت زماني والسنين الخواليا
وأطيف أبائي ولغو دياريا
وزلات أهوائي ودمع متابيا
وأطلال مأساتي ورجع بلائيا
عليك ضميري واستحاه لسانيا!!
لأسرف لولا رجفة من صباحيا
وهبت على نفسي رياح اغترابيا
وأن عليها من سنك هواديا!
على غير إيمان فكانت مهاويا!!

وأودعته سراً حراماً ولم أزل
لك الأمر. هذا من يدك عدالة
أتيتك والحق الصريح يمدني
وفي النفس فجر من يقين وموكب
وفيه رجا فاض منك جلاله
وأحببت حتى أسكرتني مودتي
وهامت بآلام الحياة وسائلي
وأرسلت أنسامي عبيراً وبهجة
وآمنت حتى كاد يذهب خاطري
ولم يبق حرف منك إلا أسرّه
لك الأمر آفاق تراءت لخاطري
وذكرني بشرُ السماء منازل
أقلب أوهامي يميناً ويسرة
ينازعني ماض شَرِفتُ بعذبه
إذا طاف منه حول نفسي طائف
هناك وفي أرض عليها ملاعبي
وفيهما تعلّاتي وراح مشاربي
وأحلامي الموتى وذات مواجعي
لك الأمر. ألهاني حديث أعاده
وأسرفت في ذكر المساء ولم أكن
لك الأمر. نادت بالرحيل خواطري
وذكرتها أن الشباب جديدة
وأن شعاب الأمس واجهتُ غيها

هي الأرض تبلوني لتبلو وخطبها
لك الأمر. مالي في وداعك باهتاً
لك الأمر. لاحت من بعيد مذهبتي
ورفت عليها من سنك مآثر
تنسّمت أمواج الرحيل وأشرفت
على نور إدراكي وضوء نفاذيا!!
ومالي أخطو شاحب النفس نائيا
وأذن حاديتها وآن ارتحاليا!!
ورفت عليها غايتي وصلاتيا
عليّ أمانيه فبارك شراعيا!!

* * *

آيات للتدبر والتفكر

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ ﴿٢٤﴾

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا فُسْقَنَتْهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ ﴿٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْورُ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلَّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ وَلَا يُنِيتُكَ مِثْلُ خَيْرٍ ﴿١٤﴾